

التحرير والتنوير

والأكثر أن تكون عقب آخر الكلام المبطل بها وقد تقدم على الكلام المبطل للاهتمام بالإبطال وتعجيله والتشويق إلى سماع الكلام الذي سيرد بعدها كما في قوله تعالى (كلا والقمر والليل إذا أدبره والصبح إذا أسفر إنها لإحدى الكبر) على أحد تأويلين . وأما فيها من معنى الإبطال كانت في معنى النفي فهي نقيض " إي " و " أجل " ونحوهما من أحرف الجواب بتقدير الكلام السابق .

والمعنى : لا يقع ما حكى عنه من زعمه ولا من غروره . والغالب أن تكون متبعة بكلام بعدها فلا يعهد في كلام العرب أن يقول قائل في رد كلام : كلا ويسكت . ولكونها حرف ردع أفادت معنى تاما يحسن السكوت عليه . فلذلك جاز الوقت عليها عند الجمهور . ومنع المبرد الوقف عليها بناء على أنها لا بد أن تتبع بكلام وقال الفراء : مواقعها أربعة .

موقع يحسن الوقف عليها والابتداء بها كما في هذه الآية .
موقع يحسن الوقف عليها ولا يحسن الابتداء بها كقوله (فأخاف أن يقتلون قال كلا فاذها) .

وموقع يحسن فيه الابتداء بها ولا يحسن الوقف عليها كقوله تعالى (كلا إنها تذكرة) .
موقع لا يحسن فيه شيء من الأمرين كقوله تعالى (ثم كلا سوف تعلمون) .
وكلام الفراء يبين أن الخلاف بين الجمهور وبين المبرد لفضي لأن الوقف أعم من السكوت التام .

وحرف النفي في قوله (سنكتب) لتحقيق أن ذلك واقع لا محالة كقوله تعالى (قال سوف استغفر لكم ربي) .

والمد في العذاب : الزيادة منه كقوله (فليمدد له الرحمن مدا) .

و (ما يقول) في الموضعين إيجاز لأنه لو حكى كلامه لطلال . وهذا كقوله تعالى (قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات وبالذي قلتم) . أي وبقربان تأكله النار . أي ما قاله من الإلحاد والتهكم بالإسلام . وما قاله من المال والولد أي سنكتب جزاءه ونهلكه فنرثه ما سماه من المال والولد أي نرث أعيان ما ذكر أسماءه إذ لا يعقل أن يورث عنه قوله وكلامه .
ف (ما يقول) بدل اشتمال من ضمير النصب في (نرثه) إذ التقدير : ونرث ولده وماله .
والإرث : مستعمل مجازا في السلب والأخذ أو كناية عن لازمه وهو الهلاك . والمقصود : تذكيره بالموت أو تهديده بقربه هلاكه .

ومعنى إرث أولاده أنهم يصيرون مسلمين فيدخلون في حزب ا [فإن العاصي ولد عمرا الصحابي الجليل وهشاما الصحابي الشهيد يوم أجنادين فهنا بشارة للنبي A ونكاية وكمد للعاصي بن وائل .

والفرد : الذي ليس معه ما يصير به عددا إشارة إلى أنه يحشر كافرا وحده دون ولده ولا مال له . و (فردا) حال .

(واتخذوا من دون ا [آلهة ليكونوا لهم عزا [81] كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا [82]) عطف على جملة (ويقول الإنسان إذا ما مت) ضمير (اتخذوا) عائد إلى الذين أشركوا لأن الكلام جرى على بعض منهم .

والاتخاذ : جعل الشخص الشيء لنفسه فجعل اتخاذ هنا الاعتقاد والعبادة . وفي فعل اتخاذ إيماء إلى أن عقيدتهم في تلك الآلهة شيء مصطلح عليه مختلق لم يأمر ا به كما قال تعالى عن إبراهيم (قال أتعبدون ما نتحتون) .

وفي قوله (من دون ا) إيماء إلى أن الحق يقتضي أن يتخذوا ا إلها إذ بذلك تقرر الاعتقاد الحق من مبدأ الخليفة وعليه دلت العقول الراجعة .

ومعنى (ليكونوا لهم عزا) ليكونوا معزين لهم أي ناصرين فأخبر عن الآلهة بالمصدر لتصوير اعتقاد المشركين في آلهتهم أنهم نفس العز أي أن مجرد الانتماء لها يكسبهم عزا . وأجرى على الآلهة ضمير العاقل لأن المشركين الذين اتخذوهم توهموهم عقلاء مدبرين . والضميران في قوله (سيكفرون ويكونون) يجوز أن يكونا عائدين إلى آلهة أي سينكر الآلهة عبادة المشركين إياهم فعبر عن الجحود والإنكار بالكفر وستكون الآلهة ذلا ضد العز .

والأظهر أن ضمير (سيكفرون) عائد إلى المشركين أي سيكفر المشركون بعبادة الآلهة فيكون مقابل قوله (واتخذوا من دون ا [آلهة) . وفيه تمام المقابلة أي بعد أن تكلفوا جعلهم آلهة لهم سيكفرون بعبادتهم فالتعبير بفعل (سيكفرون) يرجح هذا الحمل لأن الكفر شائع في الإنكار الاعتقادي لا في مطلق الجحود وأن ضمير (يكونون) للآلهة وفيه تشتيت الضمائر . ولا ضمير في ذلك إذ كان السياق يرجع كلا إلى ما يناسبه كقول عباس بن مرداس :